

الجسد كفضاء متحوّل: نحو طوبولوجيا فنية جديدة للهوية في العصر الرقمي

سناء جماعة

(استاذة متعاقدة بالمعهد العالي للفنون والحرف بالمهدية جامعة المنستير _ تونس)
تاريخ النشر: نُشر إلكترونياً بتاريخ ١ يوليو ٢٠٢٦ م

الملخص :

يتناول هذا البحث التحولات التي شهدتها مفهوما الجسد والهوية في ظل التطور المتسارع للتقنيات الرقمية، من خلال مقارنة تجمع بين الفلسفة والفن المعاصر. ينطلق من فرضية أن الجسد لم يعد كياناً بيولوجياً ثابتاً أو وعاءً مغلقاً للهوية، بل أصبح فضاءً ديناميكياً قابلاً لإعادة التشكيل عبر الوسائط الرقمية والذكاء الاصطناعي والواقع الافتراضي. كما يبرز البحث انتقال الهوية من مفهوم جوهري ومستقر إلى بناء أدائي متغير يتشكل من خلال التفاعلات التقنية والاجتماعية. يعتمد البحث على مفهوم الطوبولوجيا بوصفه إطاراً نظرياً لفهم الجسد والهوية ككيانات مرنة ومتعددة التحولات، تتجاوز الثنائيات التقليدية بين الطبيعي والافتراضي، والمادي والرقمي. ومن خلال تحليل أعمال فنية معاصرة لفنانين مثل Stelarc و ORLAN و Amalia Ulman و Lu Yang و Ines Alpha و Zach Blas و Hito Steyerl و Sweza، يبيّن كيف أصبح الفن الرقمي مختبراً لإعادة إنتاج أشكال جديدة من التجسيد والذاتية. ويخلص البحث إلى أن الممارسات الفنية الرقمية لا تكتفي بتمثيل التحولات التي يعيشها الإنسان المعاصر، بل تسهم في إنتاجها، من خلال إعادة رسم حدود الجسد والهوية بوصفهما فضاءين مفتوحين للتجريب والتفاوض وإعادة التشكيل المستمر في عصر ما بعد البيولوجيا.

الكلمات المفتاحية :

(الجسد الرقمي، الهوية الرقمية، الفن الرقمي، الطوبولوجيا، ما بعد البيولوجيا)

Abstract :

This paper explores the transformation of the concepts of body and identity in the age of digital technologies through a philosophical and artistic perspective. It argues that the body is no longer understood as a fixed biological entity or a stable container of identity, but rather as a dynamic and mutable space shaped by digital media, virtual reality, artificial intelligence, and interactive technologies. At the same time, identity has shifted from a stable essence to a fluid and performative process continuously reconstructed through technological and social interactions. Drawing on the concept of topology as a theoretical framework, the study examines how contemporary digital art redefines

embodiment and selfhood beyond traditional oppositions such as natural/artificial, physical/virtual, and original/copy. Through the analysis of selected works by artists including Stelarc, ORLAN, Amalia Ulman, Lu Yang, Ines Alpha, Zach Blas, Hito Steyerl, and Sweza, the paper demonstrates how artistic practices function as experimental spaces for producing new forms of bodily presence and digital identity. The study concludes that digital art not only reflects contemporary transformations but actively participates in reshaping the body and identity as open, flexible, and continuously evolving constructs in the post-biological era.

Keywords :

(Digital Body, Digital Identity, Digital Art, Topology, Post-Biological Era)

مقدمة

في قلب التحولات التكنولوجية المتسارعة التي يعرفها العالم المعاصر، تتغير جذرياً تمثلاتنا للجسد والهوية. لم يعد الجسد يُفهم كمجرد كيان بيولوجي مغلق أو حامل طبيعي للهوية، بل بات يُعاد تصوره بوصفه فضاءً ديناميكياً، قابلاً لإعادة التشكيل والبرمجة، ومعرّضاً لأنماط جديدة من التمثيل والتفاعل عبر وسائط رقمية متشابكة. هذا التحول لا يمسّ فقط الشكل الخارجي للجسد أو طريقة ظهوره في الأعمال الفنية، بل يطال أيضاً أسسه المفاهيمية، من خلال تفكيك العلاقة الكلاسيكية بين الجسد والذات، بين الداخل والخارج، وبين الطبيعي والافتراضي. لقد تمّ زعزعة التصور الحدّي للجسد بوصفه "حداً مادياً للذات"، لتحلّ محلّه تصوّرات أكثر مرونة وسيولة، تجعل من الجسد ساحةً يتقاطع فيها الواقعي بالافتراضي، والمادي بالرمزي، والبصري بالبياني.

مع بروز تقنيات مثل الواقع الافتراضي، الذكاء الاصطناعي، البيوآرت، وسائط التفاعل الحسي، صار الجسد يُعاد إنتاجه ليس فقط بوصفه صورة، بل كـ"بيانات قابلة للمعالجة" و"معلوماتية جسمية" يمكن تصميمها، أداءها، أو حتى اختفاؤها في الفضاء الشبكي. وبالتوازي، تفقد الهوية صفتها كجوهر داخلي ثابت، لتظهر بوصفها مُركّباً طوبولوجياً: تتشكل عبر نقاط تماس وتحول، وتُعاد صياغتها في فضاءات هجينة تجمع بين الذات والآلة، بين الحي والمحاكي. يُعرّف ميرلوبنتي الجسد في علاقته بالهوية فيقول: "الجسد هو وسيلتي للوجود في العالم"¹ في هذه المقولة، يُبرز ميرلوبنتي أن الجسد ليس شيئاً نملكه كما نملك أداة، بل هو الطريقة التي نعيش بها العالم هناك أين يتجاوز الطرح الديكارتي الذي يفصل العقل عن الجسد ليؤسس فكرًا تجسدياً للهوية فيقول: "أنا شيء مفكر، أي عقل، أو ذهن، أو فهم، أو عقلانية، وهي أشياء لا يمكن الشك في وجودها."² بهذا المعنى، فإننا نشهد انتقالاً مفاهيمياً من تمثلات ثابتة للهوية، إلى تصوّرات أكثر مرونة وسلاسة، هناك أين يعاد التفكير في الهوية بوصفها مشروعاً فنياً وجمالياً أكثر منها جوهرًا متعالياً. ويغدو الفن المعاصر، في هذا السياق، ليس فقط مرآة تعكس هذه التحولات، بل مختبراً فعلياً لإنتاج نماذج جديدة من التجسيد وإعادة تموضع الذات.

لذلك، يطرح هذا المقال الإشكالية التالية: كيف تعيد الممارسات الفنية المعاصرة، في ظل الوسائط الرقمية، صياغة الجسد كفضاء متحوّل؟ وما أثر ذلك على تصور الهوية في علاقتها بالتجسيد؟

¹ Maurice Merleau-Ponty, *Phénoménologie de la perception*, édition Gallimard, Paris, 1945, p 233.

² René Descartes, *Méditations métaphysiques*, édition. et trad. par Jean-Marie Beyssade, Paris, GF-Flammarion, 1990, p98.

سنقترح أن ما يجري هو تحول في البنية المفهومية نفسها، حيث لم يعد الجسد إطارًا مغلقًا للهوية، بل أصبح منصة مفتوحة لإعادة الكتابة، التعديل، والإفلات من المعيارية.

لفهم هذه الإشكالية، قمنا بتقسيم هذا البحث إلى ثلاث محاور رئيسية، ففي المحور الأول سنبين مراوحة الجسد بين الفيزيولوجيا والتكنولوجيا نحو تفكيك الجسد الكلاسيكي من الجسد البيولوجي إلى الجسد التقني، في المحور الثاني سنهتم بالهوية كتركيب فني وجمالي من الاستقرار إلى الأداء و الذي ينقسم إلى الهوية الرقمية و الهوية كأداء فني في الممارسات المعاصرة، أما المحور الثالث فيه نتجه نحو طوبولوجيا فنية جديدة للجسد والهوية بماهي أداة فكرية وجمالية ساهمت في إعادة رسم خريطة الجسد والهوية في الممارسات الفنية الرقمية.

أيضا من خلال تحليل أعمال فنية مختارة تجمع بين الأداء الجسدي والتقنيات الرقمية، سنبين كيف يُمارس هذا التحول داخل الفن بوصفه مجالاً طوبولوجياً لإعادة إنتاج الذات. كما سنعمد، على المستوى النظري، على مفاهيم من فلسفة الجسد والهوية لفهم طبيعة الانزياح الجاري في معنى التجسيد، ودور الفن كأفق بديل للتفكير في الذات الإنسانية في عصر ما بعد البيولوجيا.

I - الجسد بين الفيزيولوجيا والتكنولوجيا: نحو تفكيك الجسد الكلاسيكي

1. من الجسد البيولوجي إلى الجسد التقني

في فلسفة الجسد، نجد أن التاريخ الطويل للأنساق المعرفية التي تطوّرت حول الجسد بدأ في تهميش الجسم المادي لصالح العقل. ديكارت، من خلال مفهومه للثنائية³، جعل الجسد شيئاً خارجياً و متجمداً، خاضعاً للعقل البشري. هذا الموقف عدّ أحد الأسس الأساسية في الفكر الغربي طوال عدة قرون. الجسد كان يُعتبر بمثابة "الآلة" التي تحركها الروح، ليس أكثر. لكن مع وصول التقنية الحديثة، خاصة في القرن العشرين، بدأ الجسد في كسر تلك الحدود التقليدية التي فرضت عليه في العصور السابقة. وبالتوازي مع التقدم العلمي، بدأ العلماء والفلاسفة في التأكيد على أن الجسد ليس مجرد مادة جامدة، بل هو، في الواقع، كائن بيولوجي متفاعل، يمكن أن يتم التدخل فيه على مستويات متعددة.

هذه التحولات التكنولوجية التي بدأت مع ظهور الإنترنت، و مع تطوّر تقنيات الواقع الافتراضي والذكاء الاصطناعي، غيرت بشكل جذري العلاقة بين الإنسان وجسده. لم يعد الجسد عنصراً ثابتاً له خصائصه البيولوجية المعروفة. أيضاً مع ظهور النماذج التكنولوجية الجديدة التي تسمح بدمج الجسم البشري مع الآلات، بدأ الجسد في التحرر من سجنه الفيزيائي ليصبح حيزاً رقمياً، فيزيائياً، وفكرياً في آن واحد، حيث لم يعد الجسد يتماهى مع الأنساق البيولوجية الثابتة، بل أصبح هناك إمكانية لخلق جسد جديد يتعامل مع الواقع بشكل متغير.

تلك الأعمال الفنية التي تتعامل مع الجسد، مثل التي قدمها Stelarc، حيث يتم تركيب أجزاء آلية للجسم، أو ORLAN التي تستخدم جسدها كفضاء للعمليات الجراحية التجميلية من أجل تغيير ملامحها، تجسد هذه العلاقة الجديدة بين الجسد والتكنولوجيا، وتُظهر الجسد كموضوع قابل للتحويل المستمر، حيث لم يعد له أي ثبات بيولوجي، بل أصبح جسداً مُصمماً ومُعاد تشكيله وفقاً لِرغبات فنية أو اجتماعية.

2. مفهوم الطوبولوجيا كمنظور بديل لفهم الجسد

تقدم لنا الطوبولوجيا، بكونها نظرية رياضية متخصصة في دراسة الأشكال من حيث التغيير دون حدوث تمزق أو انفصال، إطاراً فكرياً بديلاً لفهم الجسد المعاصر في زمن التكنولوجيا. الجسد في الطوبولوجيا ليس كتلة ثابتة يمكن تحديدها بسهولة، بل هو كائن متحوّل، له القدرة على التشكّل والتغيير دون أن يفقد جوهره.

يعرّف دولوز الطوبولوجيا فيقول: "الطوبولوجيا لا تشير فقط إلى بنية فيزيائية للمكان، بل إلى منطق الالتواء، والاتصال، والتحوّل المستمر. إنها تمكّن من التفكير في أشكال غير ثابتة، وهويات غير جوهرية"⁴. من خلال هذا الإطار، يتخلّى الجسد عن المفهوم الثابت لكونه "مادة جامدة" و "مفهوم ثابت"، ليصبح في السياق الرقمي خريطة دائمة التشكّل، أي فضاء متحوّل يستمد معناه من تفاعلاته مع محيطه الرقمي، وكذلك من تفاعلات الفرد مع هذه البيئة.

³ Ibid، التأمّل السادس، *De l'existence des choses matérielles et de la réelle distinction entre l'âme et le corps*, p 165.

⁴ Gilles Deleuze, *Le Pli. Leibniz et le baroque*, Éditions de Minuit, Paris, 1988, p8-12.

إن فكرة الوجود الطوبولوجي للجسد تتيح تصور هذا الجسد كشيء غير ثابت، بل قابل للانفتاح والتشويه بشكل مستمر، ويعني أن الجسد ليس كائنًا مغلقًا بل هو دائمًا في حالة تفاعل مع المحيط الرقمي.

يوفر لنا الفن الرقمي، والذي يعمل على دمج الحركة والتفاعل مع الواقع الافتراضي، مناحًا مثاليًا لإنتاج تجسيدات غير ثابتة، وتصورات جسدية تتغير باستمرار. تلك الأعمال التي تعيد تشكيل الجسد على نحو غير ثابت، على سبيل المثال جسديًا ونفسيًا، هي انعكاس لهذه الطوبولوجيا الجديدة التي يعاد تحديد الجسد من خلالها.

في هذا السياق، يمكننا رؤية أعمال مثل عمل الفنان Stelarc اليد الثالثة (the third hand) (صورة عدد ١) حيث قام Stelarc في هذا العمل بزراعة ذراع صناعية آلية إضافية على جسده، تتحرك عبر إشارات كهربائية تتحكم بها حركة عضلاته. هذا المشروع يمثل تجاوزًا لمفهوم الجسد البشري العضوي عبر إضافة أطراف ميكانيكية تتحكم فيها إشارات بيولوجية.



صورة عدد ١
Stelarc اليد الثالثة the third hand
1980-1998

إذا، الجسد في هذه الفنون لا يعتمد التمثيل التقليدي أو التعبير البيولوجي، بل يدخل في تحول مستمر حيث يُعاد تعريفه على مستوى مختلف تمامًا، وهو ما يؤدي إلى إحداث تغيير في مفهوم الهوية. إذا كان الجسد في الفن المعاصر لم يعد كما هو في التقاليد، فكيف تُبنى "الذات" الآن في إطار هذه التحولات المتسارعة؟ ما هي العلاقة بين الجسد المُعاد تشكيله في الفضاء الطوبولوجي وبين الذاكرة الشخصية؟ وكيف تُعيد التكنولوجيا تعريف الحدود بين الواقع الفعلي والرقمي في بناء الهوية الذاتية؟

يعكس الفن الرقمي هذه التحولات، فالفنان المعاصر أصبح يمارس سلطته على الجسد بطرق لم تكن ممكنة في السابق، من خلال إعادة تشكيل الجسد، أو حتى في تمثيل أنفسنا عبر واجهات رقمية أو من خلال العالم الافتراضي.

II - الهوية كتركيب فني وجمالي من الاستقرار إلى الأداء

1. الهوية الرقمية: تعددية، سيولة، وانفصال عن الأصل

في العالم الرقمي، أصبحت الهوية عملية مركبة وغير ثابتة، تفتقد الاستمرارية التقليدية التي كان يُفترض أنها تُستمد من الجذور البيولوجية أو الثقافية. في هذا السياق، نجد أن الهوية أصبحت شبكة من التجارب والانطباعات المتناثرة التي يمكن أن تُبنى على حسب السياقات. تركز جوديث بنلر في كتابها⁵ على أهمية الأداء في تشكيل الهوية، حيث تُرى الهوية كأداء يتكرر ويُؤدى في السياقات الثقافية والاجتماعية المختلفة. كلما تكتفت التفاعلات عبر منصات رقمية، بدأنا نُدرك كيف أن الذات تتشكل عبر تكنولوجيا الوسائط الاجتماعية: صور، تعبيرات، وتفاعلات يتم صياغتها وتقديمها. بمعنى آخر، لم تعد الهوية شيئًا نملكه بل هي شيء يُمارَس، يُختبر، ويُعرض، مثل ما هو الحال في عمل الفنانة Orlan في عملها ORLAN's Harlequin Coat الذي انجز سنة ٢٠٠٧ (صورة عدد ٢) وهو مشروع

⁵ Judith Butle, *Trouble dans le genre : Le féminisme et la subversion de l'identité*, traduit par Cynthia Kraus, Paris, édition La Découverte, 2005

جمع عينات من الحمض النووي من أجناس بشرية مختلفة، وابتكار "معطف أو جلد" بيولوجي افتراضي مكون من هذه الجينات، لتمثيل الجسد كمزيج هجين ثقافي وبيولوجي، هنا نتحدث عن استخدام البيولوجيا الرقمية لزعة مفاهيم "النقاء" و"الهوية الأصلية".



صورة عدد ٢

ORLAN's Harlequin Coat 2007

من جهة أخرى، تشير شيري توركل إلى أن الهوية الرقمية تتمثل في سلسلة من الشخصيات (أفاتارات) التي لا توجد في وحدة مادية أو نفسية واحدة. تظهر هذه الشخصيات وتختفي في تبادل مستمر، مما يجعلها خاضعة للتغييرات المستمرة. مع الوسائط الرقمية، مثل الشبكات الاجتماعية، أصبحت الهوية في تناقض مع التصور التقليدي الذي كان يعتمد على وجود "أصل" ثابت للذات. أصبح الجسد الافتراضي في هذه الشبكات ليس جسداً مادياً، بل مادة غير ملموسة تُمثل عن طريق صور وأداءات تفاعلية. وبالإضافة إلى ذلك، تمثل الهوية الرقمية من خلال ممارسات مثل الإنستغرام أو تيك توك التي تفرض آليات معينة من الرؤية والفهم، تتسم بالعرض المتسارع للأفكار والوجود عبر الخوارزميات التي تهيمن على أشكال التفاعل الاجتماعي. تلك الأنظمة تُشجع على التكرار، التحول السريع، والأداء الرقمي المستمر، حيث الهوية في حالة من التغيير المستمر.

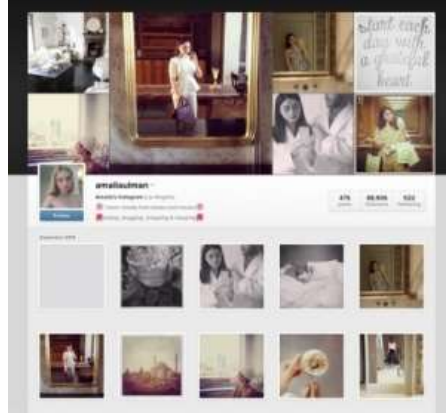
2. الهوية كأداء فني في الممارسات المعاصرة

في السياق الرقمي والفني المعاصر، تتخذ الهوية شكلاً مختلفاً تماماً عن ذلك المفهوم التقليدي الذي كان يُبنى على الثوابت الثقافية والاجتماعية أو البيولوجية. تُصبح الهوية في الفنون المعاصرة، خاصة تلك التي تستخدم الوسائط الرقمية، أداءً فنياً تتداخل فيه المفاهيم الفلسفية والتكنولوجية، لإنتاج الذات وتحويلها باستمرار⁶. مثل ما هو الحال في أعمال Amalia Ulman في مشروع (2014) "Excellences & Perfections"، وهو مثال على كيفية تشكيل الهوية كأداء فني في العصر الرقمي (الصورة عدد 3). استخدمت Ulman المنصات الرقمية، وبالتحديد إنستغرام، لصنع شخصية خيالية تمثل الجمال المثالي، حياة الرفاهية، والمظهر الاجتماعي المرموق. الجمهور الذي تفاعل مع هذه الشخصية عبر منصات وسائل التواصل الاجتماعي كان يتعامل معها كأنها شخص حقيقي، وهو ما يوضح كيف يتم تشكيل الهوية الرقمية عبر وسائل الإعلام المنظمة رقمياً. لكن المفاجأة جاءت عندما أعلنت Ulman في نهاية المشروع أن الشخصية كانت تمثيلاً فنياً يعكس الطريقة التي يتم بها بناء الهوية النسائية في منصات وسائل التواصل الاجتماعي، وكيف أن هذه الهوية تتكون عبر الخوارزميات البصرية والاجتماعية التي تروج للجمال والنجاح المعايير المحددة. من خلال هذه التجربة، فككت Ulman البنية الثقافية للأداء الرقمي، وكشفت عن تلاعبات الهوية والممارسات

⁶ Turkle Sherry, *Life on the Screen: Identity in the Age of the Internet*, edition New York: Simon & Schuster, 1995, p263. « In the digital realm, identity is not a single, unified self, but rather a series of multiple, fluid selves or 'avatars' that exist without a stable physical or psychological unity. »

⁷ Manovich Lev, *The Language of New Media*, edition MIT Press, Cambridge, 2001, p 156.

الاجتماعية في عالم الصور الرقمية. تسائل Ulman من خلال هذا المشروع العديد من التساؤلات من بينها: من نكون في الفضاء الرقمي؟ هل الجسد هو ما نعرضه أم ما نُصمّمه؟ هل الذات حقيقية أم مؤداة دائماً؟



صورة عدد ٣

حساب انستغرام مزيف (2014) Amalia Ulman "Excellences & Perfections"

تُبرز هذه الأعمال كيف أن الهوية قد تجاوزت كونها تعبيرًا عن الذات المستقرة إلى أداء رقمي مستمر يتفاعل مع جمهور متعدد في بيئات غير ملموسة. تصبح الهوية في هذه الأعمال تجربة حية، تُصنع في اللحظة، وتُعرض أمام الجمهور كتفاعل بصري وعاطفي، تتشكل من خلال التقنيات، الوسائط، الخوارزميات، والتفاعل البشري. تشير هذه الأعمال الفنية الرقمية إلى أن الهوية في العصر الرقمي لم تعد تتعلق بتعريف ثابت، بل هي عملية بناء مستمر عبر الأداء والتفاعل الاجتماعي. فالهوية الرقمية ليست تجسيدًا للذات في شكلها الثابت التقليدي، بل هي استعراض حي يتطلب حضورًا مستمرًا وتفاعلًا دائمًا مع البيئة الرقمية التي تصوّر ها وتحدها، وهذا ما تؤكد زيزي باباكاريسي التي ترى أن الهوية في شبكات التواصل الاجتماعي هي بناء مستمر يتطلب تفاعلًا نشطًا مع المجتمع الرقمي، حيث لا توجد ذات واحدة بل شبكة من العروض والتمثيلات المتغيرة.⁸

في ظل هذه التحولات، يُصبح السؤال المركزي: كيف تتحول الهوية من كيان ثابت ومُعرّف إلى مجرد "أداء رقمي"؟ و من هناك هل نرى الجسد، أم نُشارك في إنتاجه من خلال تفاعلاتنا الرقمية؟ يُمثل Stelarc أحد أكثر الفنانين تطرفًا في تعامله مع الجسد، حيث لا يتعامل معه كوسيط فني فحسب، بل ك"وسيط تقني" يعاد برمجته وتوسيعه لأداء هويات وهويات مضادة. في عمله الشهير "Ear on Arm" (الصورة عدد ٤)، قام بزرع أذن صناعية في ذراعه اليسرى، موصلة بميكروفون متصل بشبكة الإنترنت، بحيث يمكن للناس "الاستماع" من خلال جسده.

⁸ Papacharissi Zizi, *A Networked Self: Identity, Community, and Culture on Social Network Sites*, edition Routledge, paris, 2011, p 302.



الصورة عدد ٤

Stelarc "Ear on Arm" 2006

هذا العمل يفتح الباب أمام إعادة تعريف الجسد والهوية كوسيط اتصال مفتوح، يتجاوز الوظيفة البيولوجية إلى وظيفة تقنية، رمزية، وفنية. الأذن هنا ليست عضوًا بيولوجيًا فقط، بل "نقطة دخول" نحو جسد مورّع، يُبثّ ويتشظى داخل الفضاء الرقمي. هنا هوية Stelarc ليست متجذرة في ملامح أو انتماءات، بل في أداء مستمر لتحويلات الجسد نفسه، عبر أدوات الروبوتات، الإنترنت، الواقع المعزز، وغيرها من الوسائط. في بعض عروضه، يتحكم الجمهور بحركاته عبر وسائط إلكترونية، مما يخلق هوية هجينة تُعاد صياغتها جماعيًا. هذا التصور يعكس تمامًا ما نطرحه: أن الهوية لم تعد "موجودة" وإنما تُؤدى، وتُعاد هندستها عبر بنى تقنية وجمالية. الجسد يصبح هنا أداة تشغيلية، والهوية إجراءً تقنيًا متحوّلًا، لا كينونة جوهرية ثابتة.

III - نحو طوبولوجيا فنية للجسد والهوية: الفن كفضاء لإعادة التشكيل

1. الطوبولوجيا بوصفها أداة فكرية وجمالية

توفر لنا الطوبولوجيا إطارًا غير تقليدي لفهم الجسد والهوية في زمن الشبكات الرقمية. في هذا السياق، لا يُعتبر الجسد أو الهوية ككيانات ثابتة أو مغلقة، بل كأنسجة حية وقابلة للتحول والتغيير، تنشأ من تفاعل دائم بين عناصر متعددة، مثل البيانات، التكنولوجيا، والتصورات الثقافية.

تركز الطوبولوجيا على العلاقة بين الأجزاء والكل، مما يجعلها أداة مثالية لفهم الهويات المتغيرة في عصر الوسائط المتعددة. فهي تفتح لنا بابًا لتصور الجسد كفضاء متحرك، يمكنه أن يمتد أو ينكمش أو يتغير شكله عبر التفاعلات التكنولوجية⁹. هناك أين يصبح الجسد ليس نقطة ثابتة تُنظر إليها من زاوية واحدة، بل تشكلاً متحركًا، لا يتوقف عن إعادة تشكيل نفسه من خلال التفاعلات الرقمية. تصبح الهوية أيضًا عملية مستمرة، وهي ليست محددة سلفًا، بل يتم إنتاجها باستمرار من خلال أدوات تكنولوجية وفنية.

في الفن المعاصر، هناك أين تحوّلت الطوبولوجيا من كونها مجرد أداة تحليلية رياضية إلى منهج جمالي يسمح للفنانين بإنتاج أعمال فنية تتحدى الحدود التقليدية بين الجسد والتكنولوجيا، وبين الأصل والنسخة. يظهر هذا بشكل واضح في استخدام الوسائط الرقمية في الفن، مثل الصور ثلاثية الأبعاد، الفلاتر الرقمية، والواقع الافتراضي، حيث يتم إعادة تشكيل الجسد عبر التقنيات، مما يفتح المجال لفهم أعمق حول كيفية تكوّن الهوية وتصوّر الذات في هذا الزمن الجديد.

⁹ Katherine Hayles, *How We Became Posthuman: Virtual Bodies in Cybernetics, Literature, and Informatics*, University of Chicago Press, 1999, p88.

2. إعادة رسم خريطة الجسد والهوية في الممارسات الفنية الرقمية

في سياق الفن المعاصر، لا يتم تقديم الهوية والجسد كتمثيلات جاهزة أو ثابتة، بل يتم تفكيكهما وإعادة تشكيلهما باستمرار باستخدام التقنيات الرقمية¹⁰. فنانون الميديا الجديدة مثل Hito Steyerl و Ines Alpha و Zach Blas يقدمون نماذج مثيرة للاهتمام حول كيفية إعادة رسم الجسد والهوية في العصر الرقمي. تقدم Ines Alpha في مشروعها "Face Filter Studio" (صورة عدد ٥) وجه الإنسان كمساحة قابلة للتحويل باستخدام فلاتر رقمية. في هذا المشروع، الوجه ليس مجرد مرآة للداخل أو تمثيلاً للذات، بل سطح قابل للتعديل، يمكن للمستخدمين إعادة تصميمه ليعكس هويات متعددة أو هويات مؤقتة تتشكل وتختفي بحسب السياق الرقمي. هذا يعكس فكرة الهوية كأداء مستمر، في سياق ديناميكي حيث الذات تتغير بناءً على التفاعلات الرقمية.



الصورة عدد ٥

Ines Alpha "Face Filter Studio" 2020

أما في العمل "Facial Weaponization Suite" - Zach Blas، فيتم تحويل الوجوه إلى نماذج يصعب التعرف عليها باستخدام تقنيات التعرف الآلي (الصورة عدد ٦).



الصورة عدد ٦

Zach Blas "Facial Weaponization Suite" 2011

هذا العمل يعيد تصور الهوية كمقاومة تكنولوجية ضد الرقابة. من خلال هذا العمل، يُعرض الجسد كفضاء طوبولوجي مقاوم، يتحدى الحدود التي تفرضها التكنولوجيا على الهوية البشرية، ويكشف عن التوترات بين الخصوصية و الرقابة في العالم الرقمي.

في هذا النوع من الأعمال الفنية، لا يقتصر الأمر على تحليل الطوبولوجيا للهوية كما تظهر في التفاعلات الرقمية، بل يتم استخدام الطوبولوجيا في الفضاء الرقمي كأداة مقاومة لفرض الأنماط المعرفية القسرية التي تفرضها

¹⁰ Lev Manovich, *The Language of New Media*, edition MIT Press, Cambridge, 2001, p95 -120

تكنولوجيا التعرف على الوجوه. هذا يُظهر كيف أن الهوية الرقمية لا تقتصر على كونها سمة فردية، بل هي ساحة سياسية حيث يُعاد النضال من أجل الخصوصية والأصالة¹¹.
أيضا في أعمال الفنانة والباحثة الألمانية Hito Steyerl، نجد تجسيدا حادًا لفكرة الجسد والهوية كمساحات طوبولوجية غير ثابتة، تنتقل بين الواقع، الصورة، المحاكاة، والأرشيف الرقمي. من أبرز أعمالها في هذا السياق: (2013) "How Not to Be Seen" (الصورة عدد ٧).



الصورة عدد ٧

(2013) "How Not to Be Seen" Hito Steyerl ; لقطة من فيديو يحتوي على ١٥ دق يستند هذا العمل إلى تقديم ساخر/جدي في أن واحد حول كيفية الاختفاء في عصر الرؤية المفرطة، عصر الأقمار الصناعية، صور Google Earth ، والكاميرات الذكية. من خلال مزج الأداء الحي بالصورة الرقمية، وبمؤثرات "رخيصة" لكنها واعية جدًا، تستعرض Steyerl كيف أن الجسد لم يعد يُرى بوصفه كيانًا ماديًا فحسب، بل كمعلومة، كنقطة بيانات، كعنصر ضمن شبكة مراقبة.
في هذا السياق، يصبح الاختفاء نفسه شكلاً من أشكال إعادة تشكيل الجسد والهوية طوبولوجيًا: ليس عبر التمثيل، بل عبر الانسحاب، التمويه، التحول. هنا الجسد لا يُقاوم من موقع ثابت، بل يتحرك داخل النظام نفسه، يُعدّل تضاريسه، يختفي، يُموّه وجوده. إنها هوية منزاحة باستمرار، تتجنب التثبيت، وتُفجّر حدود الصورة.
تُظهر Steyerl أن الطوبولوجيا ليست فقط طريقة لفهم الجسد، بل إستراتيجية فنية وسياسية للتحايل على آليات الرؤية والهيمنة. فالجسد في أعمالها ليس مركزًا، بل مسارًا، خريطة تتغير مع كل تكبير، مع كل انتقال بين الواقعي والافتراضي.
هنا، الفن لا "يُمثّل" الجسد، بل يُمارس عليه تحولات طوبولوجية تكشف هشاشة الحدود بين ما هو مرئي وما هو غائب، بين ما هو مرسوم وما هو ممكن، بين ما هو جسد وما هو أثر للجسد.
في ظل هذه الممارسات الفنية، تطرح الطوبولوجيا في الفن المعاصر أسئلة جديدة حول الهوية والجسد في العصر الرقمي: هل الهوية اليوم قابلة للتجزئة؟ هل يمكن إعادة تشكيلها حسب السياقات والوسائط، أم أنها تتطلب نوعًا من الاستمرارية كما في الهوية التقليدية؟ كيف يمكن للفن الرقمي أن يعيد تشكيل الجسد؟ هل الجسد الرقمي يُعتبر جسدًا حقيقيًا، أم أنه مجرد صورة مؤقتة يمكن إعادة تصميمها وفقًا للخيارات المتاحة؟ ما هو دور التكنولوجيا في تحديد أو تغيير حدود الهوية؟ هل تفتح التكنولوجيا الطريق لفهم جديد لهوية أكثر مرونة، أم أنها تُساهم في تأييد قيود جديدة؟

خاتمة

¹¹ Ruha Benjamin, *Race After Technology: Abolitionist Tools for the New Jim Code*, edition Polity Press, Cambridge, 2019, p 98.

إذا من هناك يمكن لنا أن نلاحظ عمق التحولات الكامنة في مفهومي الجسد والهوية في ظل التطورات التكنولوجية المتسارعة، حيث لم يعد الجسد يُنظر إليه ككيان بيولوجي ثابت، ولا الهوية كجوهر داخلي دائم، بل أصبحت كيانات مرنة، قابلة لإعادة التشكيل والتفاعل مع الوسائط الرقمية.

يتحوّل الفن المعاصر إلى ساحة طوبولوجية تُمكن من إعادة تصور الفضاءات الجسدية والهوياتية، حيث يُصبح الجسد بنية قابلة للبرمجة، وتتشكّل الهوية عبر الأداء والتفاعل الرقمي المستمر. لم تعد الهوية تعني "من نحن"، بل "ما يمكن أن نصبح عليه"، إذ تتغيّر باستمرار تبعاً للمنصات الرقمية والعلاقات الاجتماعية.

في هذا الإطار، يؤدي الفن دوراً مزدوجاً: فهو أداة ابتكار ومقاومة في آن واحد. فمن جهة، يفتح إمكانيات جديدة لإعادة تخيل الذات الإنسانية في عصر ما بعد الإنسان، ومن جهة أخرى، يُسلط الضوء على التهديدات المرتبطة بالمراقبة الرقمية، ومحو الهوية، وتحويل الذات إلى سلعة. بذلك، يصبح الفن وسيلة نقدية تكشف التوتر بين الحرية والرقابة، وتؤكد أهمية التخيل الفني كقوة تحريرية في مواجهة الحتميات التقنية والسياسية.

إذن، لا تتعلق هذه الدراسة فقط بتفكيك المفاهيم التقليدية للجسد والهوية في العصر الرقمي، بل تهدف إلى فهم كيف يمكن للفن المعاصر أن يُعيد إعادة تخطيط هذه المفاهيم من خلال التجربة الفنية في الفضاءات الرقمية والطوبولوجية. في عالم تهيمن عليه التكنولوجيا، يتحول الفن إلى مساحة طوبولوجية حية، حيث يتم اختبار الجسد والهويات في الزمان والمكان، ويفتح الطريق أمام إعادة اختراع الإنسان في عصر ما بعد الإنسان.

المراجع

- *Maurice Merleau-Ponty, *Phénoménologie de la perception*, édition Gallimard, Paris, 1945
- * René Descartes, *Méditations métaphysiques*, édition. et trad. par Jean-Marie Beyssade, Paris, GF-Flammarion, 1990
- * Gilles Deleuze, *Le Pli. Leibniz et le baroque*, Éditions de Minuit, Paris, 1988
- * Judith Butle, *Trouble dans le genre : Le féminisme et la subversion de l'identité*, traduit par Cynthia Kraus, Paris, édition La Découverte, 2005
- * Turkle Sherry, *Life on the Screen: Identity in the Age of the Internet*, édition New York: Simon & Schuster, 1995.
- * Manovich Lev, *The Language of New Media*, édition MIT Press, Cambridge, 2001.
- * Papacharissi Zizi, *A Networked Self: Identity, Community, and Culture on Social Network Sites*, édition Routledge, paris, 2011.
- * Katherine Hayles, *How We Became Posthuman: Virtual Bodies in Cybernetics, Literature, and Informatics*, University of Chicago Press, 1999.
- * Ruha Benjamin, *Race After Technology: Abolitionist Tools for the New Jim Code*, édition Polity Press, Cambridge, 2019.